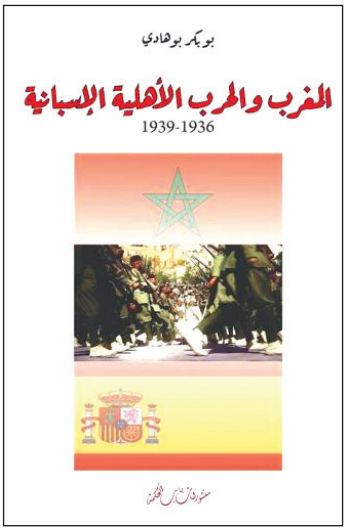

Būbker Būhādī.- *al-Maghrib walḥarb al-‘ahliyyat al-‘isbāniyyat (1936-1939)* (Tiṭwān: manshūrāt bāb al-ḥikmat, 2020), 581p.

بوبكر بوهادي.- المغرب والحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939 (تطوان: منشورات باب الحكمة، 2020)، 581ص.

استأثرت علاقة المغرب بالحرب الأهلية الإسبانية باهتمام بالغ من قبل المؤرخين والأكاديميين الإسبان، بيد أن هذا الاهتمام تجاهل عن قصد حقيقة الدور المغربي والموقع المهم الذي احتله ضمن وقائع هذه الحرب وأحداثها، وحاول حصره في بعده العسكري المتمثل في تجنيد عشرات الآلاف من المغاربة والزج بهم في الحرب، مع العمل على تشويه صورتهم التي ظلت مقترنة بكل ما عرفته تلك الحرب من وحشية وعنف، وطمس دورهم الذي كان فاعلا وحاسما في كسب المتمردين للحرب الأهلية.

ضمن هذا السياق يكتسي كتاب **المغرب والحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939** أهمية بالغة بحكم خوضه لغمار هذا الموضوع الشائك والملتبس، الذي لم ينل حظه من البحث والاستقصاء من قبل المؤرخين والباحثين المغاربة، وما تزال تبعاته ترخي بظلالها على العلاقات المغربية الإسبانية والتاريخ المشترك بين البلدين.

نظم المؤلف كتابه، الذي يحتوي على ما يقارب 581 صفحة، في ستة فصول رئيسة، تناول في الفصل الأول حيثيات الإعداد الفعلي للانقلاب الذي قاده عدد من الضباط الإسبان، وفي مقدمتهم الجنرال فرانسيسكو فرانكو، انطلاقا من شمال المغرب الخاضع آنذاك للحماية الإسبانية، في شهر يوليوز من سنة 1936. وعالج في الفصل الثاني مسألة مشاركة المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية من كافة جوانبها، انطلاقا من تحليل الدوافع التي تفسر انخراطهم الكثيف في جيش فرانكو، ومرورا بأهمية هذه المشاركة وفعالية الجنود المغاربة ودورهم الحاسم في المجريات العسكرية للصراع، بالنظر لقوّتهم القتالية وأعدادهم الضخمة، وصولا إلى حضورهم في أعنف المعارك وجبهات القتال. كما عمل المؤلف في هذا الفصل على تفكيك العناصر التي كانت وراء صنع أسطورة عنف هؤلاء المجندين ووحشيتهم، من خلال دراسة الحضور المغربي في الحرب الأهلية ضمن الشروط الموضوعية والتاريخية التي جرت فيها. وأسهب المؤلف في الفصل الثالث في وصف مختلف الجوانب المتعلقة بالحياة اليومية للجنود المغاربة، بما

في ذلك الحديث عن طرق قتالهم في الجبهات، ونمط عيشهم وحياتهم اليومية، والنظر في مدى انعكاس طول مدة الحرب الأهلية على نفسياتهم ومعنوياتهم، والعلاقة التي نسجها هؤلاء مع الإسبان مدنيين وعسكريين، والتي بقيت عموما محدودة ومشوبة بالحذر وعدم الثقة، فضلا عن معاناتهم في إسبانيا أثناء الحرب وبعدها، قبل ترحيلهم وطردهم الجماعي. أما الفصل الرابع، فقد خصصه المؤلف لاستعراض معالم السياسة التي انتهجها فرانكو بالمغرب طيلة سنوات الحرب الأهلية، فقد أدرك أن التفرغ للحرب الأهلية ونجاح حركته العسكرية مرتبط بشكل كبير بالحفاظ على هدوء منطقة الحماية الإسبانية التي عدّها جبهته الخلفية، فحرص على استقرارها وإحكام السيطرة عليها وضمان ولاء ساكنتها وزعاماتها وحمايتها من أي اضطراب، وعلى ضمان استمرار إسهامها في تزويده بالمقاتلين على امتداد سنوات الحرب. وتناول المؤلف في الفصلين الخامس والسادس انعكاسات الحرب الأهلية وتداعياتها، سواء على منطقة الحماية الإسبانية أم على باقي المناطق المغرب، فضلا عن استعراض كيفية تفاعلها مع أحداثها.

ويدافع المؤلف عن قضية أساسية وجوهرية تشغل حيزا مهما في متن الكتاب، تتمثل في العلاقة المتشعبة والمعقدة للمغرب بالحرب الأهلية الإسبانية التي شكلت منعطفا جديدا في تاريخ الروابط الثنائية بين البلدين، وهي علاقة تبين بجلاء الارتباط الواضح والقوي للمغرب بهذا الحدث الذي عُدّ من أكثر نماذج الحروب الأهلية شراسة وتعقيدًا ودموية في القرن العشرين، ولا يمكن على حد تأكيد المؤلف فهم سياقات هذه الحرب وتطوراتها دون استحضار البعد المغربي، وإغفاله يجعل كل دراسة لها مبتورة وناقصة.

ولا ينحصر هذا الارتباط حسب المؤلف في كون مناطقه الشمالية قد شكلت قاعدة لانطلاق الحركة الانقلابية التي أفضت إلى الحرب الأهلية ومشاركة أبنائه فيها فحسب، بل وإنما باعتباره سببا رئيسا من الأسباب العميقة التي أسهمت في اندلاعها منذ أن وطأت إسبانيا أرض المغرب من 1909 إلى 1927، وكان له دور كبير في نضج الظروف العامة التي مهدت لقيامها.

ارتبط المغرب بالحرب الأهلية أيضا، الأمر الذي بقي مُغيَّبا في الكتابات الإسبانية حسب المؤلف، باعتباره إحدى جبهات الحرب؛ إذ عاشت مناطقه الشمالية كل ما شهدته الجبهة الإسبانية من مختلف مظاهر الحرب، من تقتيل ودمار واعتقالات واسعة وتصفيات جسدية وقصف جوي وإعدامات دون محاكمات. كما جرى عزل المنطقة عن العالم الخارجي عبر قطع كل أشكال اتصال المنطقة بإسبانيا أو بباقي مناطق المغرب. ويبدو أن المؤلف لم يبالغ حين اعتبر أن منطقة الحماية الإسبانية ومنطقة طنجة التي كانت خاضعة لنظام دولي قد عاشتا على إيقاع كل مظاهر العنف والإرهاب التي نجمت عن إعلان الانقلاب العسكري، وكانتا ميدانا

لتجربتها قبل أن تعم إسبانيا، وتتحول هناك إلى حرب أهلية مدمرة، حيث سيصبح المغرب بدوره إحدى جبهاتها ومسرحا لحرب حقيقية إلى درجة تحول معها شمال المغرب إلى إسبانيا مصغرة عكست مظاهر الصراع المحتدم الذي عاشه الإسبان طيلة سنوات الحرب الأهلية.

ومن جهتها لم تبق منطقة الحماية الفرنسية بمنأى عن هذه الأحداث والتطورات، فتأثرت بدورها بالانقلاب العسكري الذي قاده الجنرال فرانكو والحرب الأهلية التي نجمت عنه، وعاشت هي كذلك على إيقاع الحرب التي كانت لها انعكاسات كبيرة، حددت في الكثير من الأحيان جل التطورات التي شهدتها المنطقة، وتحكمت في مختلف السياسات التي نهجتها حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية تجاه المغرب، وأسهمت في تحديد علاقتها بالوطنيين المغاربة وموقفها من نشاطهم ومطالبهم.

توقف المؤلف عند الأهمية القصوى التي اكتستها عملية تجنيد المغاربة واستغلالهم من قبل الجنرال فرانكو بغية تحقيق طموحاته الشخصية السياسية والعسكرية، عبر إقحامهم في حرب لا طائل من ورائها، والمحددات التي جعلت من هؤلاء المجندين، عنصرا رئيسا راهن عليه منذ بداية الحرب الأهلية وإلى نهايتها في كسب حربه ضد الجمهوريين، فنجاح الخطة العسكرية التي اعتمدها فرانكو والتي تقوم على استنزاف العدو وسحقه والنيل من معنوياته كان مرهونا بوجود احتياطي كبير من الوحدات العسكرية الصلبة والعنيدة يسمح له بتعويض الخسائر البشرية، مما فرض تجنيدا متواصلا وكثيفا للمقاتلين المغاربة. ومن الأسباب التي دفعته إلى الاعتماد بقوة على الجنود المغاربة خلال الحرب الأهلية رغبته في امتلاك قوات عسكرية صدامية رهن إشارته تحارب بشراسة في الخطوط المتقدمة لجبهات القتال، ويكون ولاؤها لشخصه دون قيد أو شرط ولا ينازعه أحد في قيادتها، ويحتكر انتصاراتها لنفسه بغية ترسيخ مكانته وتقويتها وسط زملائه وإبعاد كل منافسيه. وعلاوة على ذلك كان الجنود المغاربة الذين انضووا تحت لواء جيش فرانكو القوة العسكرية الوحيدة التي كان بمقدوره التصرف فيها بكل حرية واستعمالها حسب ما تقتضيه حربه الاستنزافية القائمة على استهلاك كثيف للمقاتلين دون أية مراقبة أو محاسبة لوقوع ضحايا كثر في صفوفهم، بخلاف الوحدات العسكرية الأخرى التي لم يكن حرا في استخدامها وتوظيفها ولأنها كانت تحت سلطة ضباطها وتخضع لمراقبتهم.

وبخصوص الدوافع الكامنة وراء انخراط المغاربة المجندين في صفوف جيش فرانكو، يميز المؤلف بين مرحلتين أساسيتين في مسار عملية التجنيد، اتسمت المرحلة الأولى بإقبال الناس على التجنيد طواعية وبكثافة خلال الشهور الأولى التي أعقبت الانقلاب العسكري، بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة والقاسية السائدة آنذاك في منطقة الريف من جراء معاناتها للفقر المدقع وتعاقب سنوات الجفاف وتفشي الأمراض والأوبئة الفتاكة، ورغبة المجندين في

ضمان قوتهم اليومي، حيث اصطفت أمام مكاتب التسجيل طوابير كبيرة من المتطوعين الفارين من البؤس والجوع أملا في قبولهم، والحصول على أجر "مغر" ومساعدات غذائية كانت تقدم لكل منخرط. وفضلا عن أهمية العامل الاقتصادي في تفسير نجاح تجنيد المغاربة والتحاقهم بكثافة بصفوف الجيش الإسباني، ثمة دوافع أخرى لا تقل أهمية توقف المؤلف عند بعضها، ومنها استغلال فرانكو المشاعر الدينية للمغاربة بغية كسب تعاطفهم، فأفلح في استمالة قسم من المغاربة وفي إقناعهم بالتجنيد بعدما نجح في إضفاء صبغة دينية على مجريات الحرب الأهلية، والادعاء بأنها تجسيد لحرب مقدسة تسعى لمحاربة الشيوعيين الكفار والملحدين.

أما المرحلة الثانية، فقد تميزت خلالها عملية التجنيد بصعوبتها واتخذت طابعا إجباريا، بحكم بداية نفور الناس وفتور حماسهم وعدم إقبالهم على الالتحاق بالجيش. وأمام حاجة فرانكو الملحة إلى المقاتلين، لجأت السلطات العسكرية إلى إغراء الناس وتشجيعهم بمنحهم مجموعة من الامتيازات المادية والنقدية لفائدة المتطوعين وأفراد عائلاتهم، بيد أن كل هذه الإغراءات لم تجد في إقناعهم بالتسجيل في قوائم التجنيد، مما دفع السلطات العسكرية إلى استخدام أساليب الضغط والترهيب بغية حملهم على الالتحاق بصفوف الجيش الإسباني عنوة. ويرجع ضعف إقبال المغاربة على عملية التجنيد، حسب المؤلف، إلى تطورات الصراع داخل التراب الإسباني إثر فشل المتمردين في الاستيلاء على العاصمة مدريد والإطاحة بالحكومة الجمهورية المنتخبة بالسرعة التي كانت متوقعة، وتحوله إلى حرب دامية وطويلة الأمد، وبسبب عودة بعض المصابين المغاربة إلى قبائلهم، حيث نقلوا معهم مشاهد رهيبة لعنف المعارك وضراوتها، وأخبار شتى عن فقدان أعداد كبيرة من إخوانهم وزملائهم.

وعلى الرغم من الأهمية التي اكتستها مشاركة المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية، وحضورهم القوي والكثيف في كل جبهات الحرب ومعاركها، وخصالهم الحربية المتميزة التي جعلت منهم قوة أساسية أسهمت بفعالية كبيرة في حسم مجريات الحرب لصالح الجنرال فرانكو، فإن ذلك الحضور وتلك الأهمية مرّا في غالب الأحيان في صمت وعدم اكتراث واضحين، انتصبا حائلا دون اعتبارهم طرفا متميزا في الحرب الأهلية وإبراز دورهم الفعال في توجيه أحداثها وتحديد مصيرها، مقارنة مع باقي الأطراف الأخرى التي حاربت إلى جانبهم وفي غالب الأحيان وراءهم، وحظيت مشاركتها بتغطية إعلامية واسعة وتتبع دبلوماسي واضح، وكذلك باهتمام الباحثين والدارسين. وقدّم المؤلف تفسيرات لهذا التجاهل المقصود الذي قوبلت به المشاركة المغربية، سواء أثناء الحرب أو بعدها، فقد تعمد الجنرال فرانكو التعتيم على مشاركة المجندين المغاربة وعدم الاعتراف بها، رغبة منه في إخفاء مشاركة الأجانب في جيشه، بعد تنديد الجمهوريين الذين ضغطوا على لجنة التدخل من أجل سحب المجندين

المغاربة من الصراع باعتبارهم وحدات عسكرية أجنبية. وبعد هزيمة الحكومة الجمهورية المنتخبة وتسلم فرانكو مقاليد السلطة، صار موضوع دور المجندين المغاربة في نصرته وتدعيم جانبه من المواضيع المحرجة، بل والمحرم الحديث عنها، فبالنسبة له لا يمكنه أن يكون مدينا للانتصار الذي حققه لأية جهة أو قوة أخرى سوى قوته وعبقريته العسكرية، كما أن الصورة التي كرسها ورسخها حول نفسه وشخصيته طوال الحرب وصنعت منه بطلا وزعيما ومنقذا لإسبانيا جعلته لا يقبل بتاتًا بأن يكون مدينا في انتصاره لجنود ينتمون إلى بلد كان يستعمره.

هكذا انبرت العديد من الكتابات المؤيدة للنظام الفرنكاوي لقراءة تلك المشاركة وتفسيرها بما يخدم مصالحه ويبرئ ذمته من الأعمال الوحشية التي اقترفت على مرأى ومسمع من ضباطه، فنفت عن المقاتلين المغاربة كل دور متميز وفعال، وألصقت دعايته بهم الغالبية العظمى من جرائم الحرب المقترفة من نهب واغتصاب وقتل ونسبتها إليهم. وقد تأثرت بتلك الدعاية المغرضة الكتابات التي تناولت موضوع الحرب الأهلية الإسبانية فيما بعد، بما في ذلك تلك المنتمية لليسار الإسباني، التي انساقت وراء هذه الطروحات في تشويه دور المجندين المغاربة وتهميشه، فاتفقت في مجملها على التركيز على عنف الجنود المغاربة وعلى الرعب الذي صاحب دخولهم المدن والقرى الإسبانية، وأسهمت في ترسيخ صورة سلبية جدا وقاتمة حول هؤلاء المقاتلين.

وقد تولد عن حضور المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية ومشاركتهم الكثيفة في معاركها، وما صاحبها من عنف واقتتال شديدين، صورة سيئة ومخيفة عن المقاتل المغربي، ونُسجت روايات حول وحشيته وهمجيته القريبة من الأسطورة، فبقي الكثير من الإسبان يتداولونها حتى بعد نهاية الحرب. ولم تنشأ هذه الصورة النمطية السلبية والقاتمة من عدم، أو بدون ممهدات، بل تغذت من أحداث التاريخ بما تحمله من تعقيدات وتراكمات الإرث الاستعماري التي ظل مستحكما في مفاصلها ردحا من الزمن. ولم تعمل الحرب الأهلية الإسبانية سوى على ترسيخ هذه الصورة المشوهة والمرعبة المتجذرة سلفا في المخيال الجمعي الإسباني، فكانت بذلك وراء اكتمال بلورة الصورة الوحشية المزعومة للمقاتل المغربي الذي تحركه غرائزه الحيوانية الرامية إلى إشباع رغبته في القتل والسلب والنهب. وما تزال حتى يومنا هذا قطاعات واسعة من الأكاديميين والمؤرخين الإسبان وفية لهذه الصورة ومتشبثة بها.

إن مساءلة أسطورة الرعب التي نسجت حول المقاتلين المغاربة الذين اقتيدوا مرغمين لخوض غمار حرب لم تكن تعنيهم، وتفكيك العناصر الأساسية التي تظافرت فيما بينها لبنائها وكانت وراء صنعها، يمر حتما عبر نقد المصادر المؤطرة للرؤية الإسبانية المغلوطة عن الجندي المغربي، واستئصالها من جذورها، وبيان سطحيتها وغلبة الإيديولوجية عليها، واستنادها على

التشويه والتحريف، بيد أن ذلك لم يكن ممكنا لو اقتصر المؤلف على اعتماد المقاربة التاريخية الصرفة، التي لا تسمح بالإحاطة العلمية الدقيقة بكل حيثيات هذا الموضوع المتسم بالتعقيد والشساعة، لذلك مكنه انفتاحه المرن على مناهج متنوعة، لا سيما أدوات الأنثروبولوجيا الثقافية، من فهم صورة المغربي وإدراكها بكل عناصرها المرعبة والعمل على تفكيكها.

وإذا كان المؤلف لا ينكر العنف الشديد الذي اكتسته مشاركة المقاتلين المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية، وأن الكثير مما اتهموا بارتكابه من ممارسات، والمتمثلة في مختلف أعمال السلب والقتل والاغتصاب ونشر الرعب وغيرها من الأعمال المشينة والوحشية قد أقر باقترافها بعض المستجوبين أنفسهم، إلا أنه يشدد على أن ذلك وحده لا يمكن أن يبرر ولا أن يفسر حجم هذه الأسطورة وقوتها التي أحاطت بالمقاتل المغربي وألصقت به دون غيره من عشرات الآلاف من المشاركين في الحرب.

إن هذه الأعمال البشعة وغير المبررة المنسوبة إلى المغاربة دون غيرهم هي ممارسات مرتبطة بالحروب، لا سيما منها الحروب الأهلية التي غالبا ما تكون عنيفة، وتجسد همجية الإنسان ووحشيته بسبب رغبته الجامحة في تحقيق النصر، واستعداده لارتكاب كل ضروب الفظائع وأنواعها، للتمكن من إبادة الآخر المختلف إيديولوجيا. واستنادا إلى وثائق وشهادات اعتمد عليها المؤلف، فإن هذه الجرائم قد اقتُرفت من قِبَل جميع المشاركين في الحرب، وليس من قبل المغاربة وحدهم، كما أنها وقعت أمام أعين القادة العسكريين الإسبان وبمباركتهم وتنفيذا لأوامرهم. وفي كثير من الحالات، كانت تُعزى للمقاتلين المغاربة فظائع وأعمال وحشية ارتكبتها قوات أخرى حاربت إلى جانبهم، أو كانت من نسج الخيال فقط. كما أن الممارسات التي ارتكبها الجنود الإسبان من كلا الجانبين المتحاربين، كانت أكثر فظاعة وقسوة وتجاوزت في بشاعتها ما أجبر المقاتلون المغاربة على ارتكابه.

وتجد هذه الصورة السلبية والقاتمة التي رافقت هؤلاء المقاتلين المغاربة تفسيرها أيضا في طول المدة الزمنية للحرب الأهلية ودمويتها، وما اتسمت به من عنف واقتتال شديدين، وأيضا في العمليات الخاصة والأدوار الخطيرة التي كانوا يجبرون على القيام بها بالقوة وأحيانا تحت التهديد، حيث شكلوا قطب رحى الحرب ووقودها، وحاربوا بشراسة في الصفوف الأمامية في جل المعارك والجبهات كقوات صدامية مسخرة لتلقي الضربات، زهذا على الرغم من افتقارهم للتكوين والتدريب العسكريين واقتصارهم على استخدام أسلحة ومعدات بسيطة. وعلى هذا الأساس، لم تكن الشجاعة والروح القتالية التي اتصف بها المقاتلون المغاربة، في واقع الأمر، سوى رد فعل غريزي قوامه الأمل في البقاء على قيد الحياة والهروب من موت محدق بهم، فما كان يؤرقهم هو الهلاك بعيدا عن موطنهم والخوف من دفنهم في "بلاد الكفر".

ولم يستبعد المؤلف وجود رغبة في الثأر عند المقاتلين المغاربة الذين وجدوا أنفسهم فجأة في عقر دار الإسبان يقاتلون الدولة المستعمِرة لهم، التي حاربتهم لمدة طويلة للقضاء على مقاومتهم، رغبة جعلتهم يغالون في العنف ضد الجمهوريين ربما انتقاما لما ارتكبته القوات الاستعمارية الإسبانية من جرائم بشعة في حقهم، واستعادة للحظة المقاومة التي كانت أصداؤها ما تزال حية، لا سيما أن العديد منهم شارك فيها وأسهم في بطولاتها.

يُعدُّ كتاب **المغرب والحرب الأهلية الإسبانية 1936-1939** إضافة مهمة ومساهمة ثمينة تثري المكتبة التاريخية المغربية، يتميز بسلاسة لغته وكثافة أفكاره وبغناها التي تحظى بأهمية واضحة تفرض حضورها وراهنيّتها. وظف فيه المؤلف أدوات نقدية صارمة في تعاطيه مع المادة المصدرية المتنوعة والغزيرة المعتمدة، لمقاربة موضوع المشاركة المغربية في الحرب الأهلية الإسبانية من زوايا متعددة ومختلفة، فقدّم رؤية متوازنة مغايرة للسردية التقليدية غير المنصفة السائدة لدى قسم واسع من المؤرخين والأكاديميين الإسبان الذين قاربوا هذا الموضوع مقاربة مُجتزَأة بعيدا عن ما تقتضيه الموضوعية والنزاهة العلمية. كما دعا فيه المؤلف إلى تجاوز النظرة التي حاول هؤلاء أن يسيجوا دور المغرب فيها، مبرزا أن علاقة المغرب بالحرب الأهلية علاقة متشابكة ومتداخلة ومتعددة الأبعاد، وهي أعقد بكثير من الصورة النمطية التي تبنتها الكتابات والدراسات الإسبانية.

إن ما يمنح هذا العمل قدرا ملحوظا من الأهمية كونه صادر عن رؤية مغربية في ظل افتقار المكتبة المغربية لكتابات ودراسات حول المغرب وعلاقته بالحرب الأهلية الإسبانية مكتوبة من زاوية نظر مغربية مع بعض الاستثناءات، أسهمت في تفكيك الصورة النمطية السلبية التي كرستها هذه الحرب عن الجندي المغربي في المتخيّل الجمعي الإسباني.

الكتاب أيضا دعوة إلى إنصاف المقاتلين المغاربة الذين جندهم فرانكو في حربه "المقدسة" ضد الجمهوريين، لتحقيق مكاسبه، ومثّلوا حبل الخلاص بالنسبة إليه، وأسهموا في تحقيق نصر لم ينالوا منه أدنى رد اعتبار. وتصحيح الرؤى حول هذه المشاركة المتميزة والوازنة وإعادة قراءتها بقدر معقول من الحيادية والموضوعية، من خلال الانكباب على مقاربة مختلف أوجه تلك المشاركة بعمق واستفاضة، وإبراز أهميتها بالنسبة لمصير الحرب الأهلية ومصير فرانكو وانتصاره، بعيدا عن الأحكام المسبقة والجاهزة والرؤى والتصورات النمطية التي حجبت صدقية الوقائع، وجعلت من الجنود المغاربة الذين شكلوا قوة حربية فعالة وسلاحا نفسيا وظفه فرانكو لإرعاب خصومه، مجرد قتلة ومتوحشين يتهافتون على الغنائم، وهي تصورات ما تزال حاضرة في مخيال الإسبان وذاكرتهم الجمعية.

قاسم الحادك
جامعة شعيب الدكالي بالجديدة